

مدينة باغاي، قلعة الدوناتيين
Bagay Town, castle of Donitian

د. سعيدة أويحي،
أستاذة محاضرة أ، تاريخ القديم، جامعة الجزائر 2.
الإيميل المهني
Saida.ouyahia@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2021- 04 - 25	تاريخ المراجعة: 2021- 05 - 12	تاريخ القبول: 2021- 05 - 17
------------------------------	-------------------------------	-----------------------------

الملخص:

مدينة باغاي واحدة من أهم مدن نوميديا التي ورد ذكرها في المصادر القديمة، حيث حوّل لها موقعها الجغرافي لعب أدوار بارزة في الأحداث التي وقعت في إفريقيا، خلال القرن الرابع الميلادي، وما صاحبها من تطورات سياسية زعزعت أمن و استقرار الإمبراطورية الرومانية في المنطقة، فقد كانت من المدن المعارضة للسياسة المنتهجة من طرف أباطرة الرومان ضد الدوناتيين، وتدخلاتهم المتكررة في شؤون الكنيسة الإفريقية، حيث رفضت تطبيق القرارات المتخذة ضد الحركة الدوناتية، بل أصبحت من أكبر معاقلها في المنطقة، ولاحقا صارت المدينة التي استقرت بها ديهيا، ملكة الأوراس، الملقبة بالكاهنة أثناء الفتوحات الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: باغاي، نوميديا، الدوناتية، إفريقيا.

The abstract:

Bagai town is regarded as the most important city of Numidia recorded in the ancient reference, its geographical position allowed it to play the most major role in the events that happened in Africa, during the fourth Gregorian century, as well as the following political events that disturb and disequilibrium the security and stability the Roman Empire in the area, the Bagay town was an opponent of policies applied by Roman Emperors against Donatits, and poking their nose in the African church matters, this town refused to apply the decision taken against Donatian movement, it was the big home in the area, and then it became the shelter of Dehia, Queen of Aures, alias Kahina during the Islamic conquests.

Key words: Bagai, Numidia, Donitian, Africa.

المؤلف المرسل: سعيدة أويحي، الإيميل: saidaouyahia@gmail.com

مقدمة

تُعد الدراسات المرتبطة بتاريخ مدن الجزائر في القديم من المواضيع الجديدة بالدراسة، فهي واحدة من أهم الأبحاث التي تُساهم في إثراء المعرفة بالمنطقة والبحث التاريخي، فهي تُشارك في إظهار مختلف الجوانب الحضارية لهذه المدن، ومدى مساهمة سكانها في بناء الإرث الحضاري المغاربي و المتوسطي، فمثل هذه الأبحاث تُساعدنا في التعريف بتاريخ هذه المدن، و بناء صورة كاملة و متكاملة عنها في مختلف ميادين الحياة فيها. كما تُساهم في تفسير الأحداث الواقعة فيها، و في شمال إفريقيا، وما ترتب عنها من تطورات و تغيرات سياسية، و اقتصادية، و اجتماعية، و دينية، و ثقافية، وغير ها من الجوانب الحيوية.

ومن جملة المدن الجزائرية القديمة التي خصصت لها هذه الدراسة "مدينة باغاي" التي ذاع صيتها خلال فترة الاحتلال الروماني لنوميديا، والتي استمر إشعاعها الحضاري في العصر الوسيط و الحديث، لينطفئ بعدها إلى يومنا هذا، لأسباب عديدة كعدم الاهتمام بتاريخها القديم.

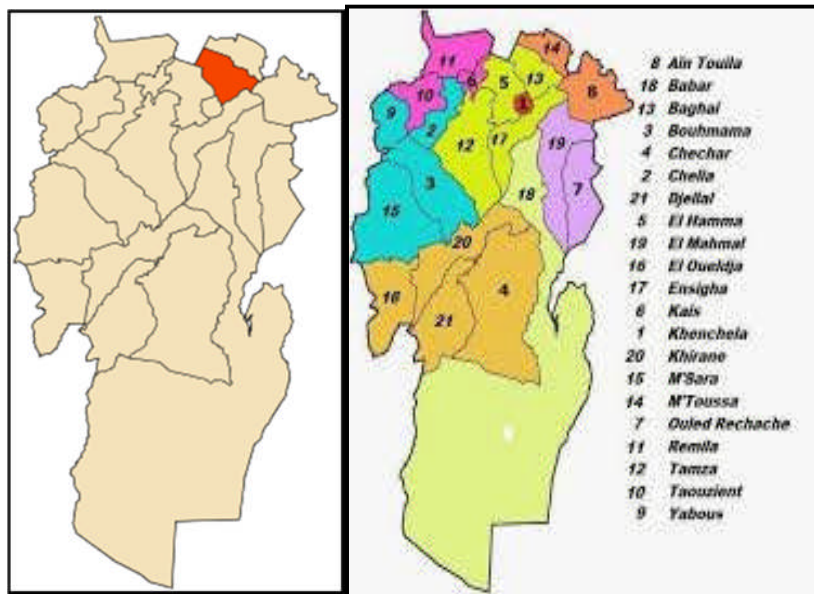
رغم الأهمية التي حظيت بها مدينة باغاي في العصر القديم، والدور الكبير الذي لعبته في مواجهة سياسة أباطرة الرومان والغزاة الذين جاءوا من بعدهم إلى المنطقة، إلا أنها لم تحظ بأبحاث ميدانية خاصة، ولا بدراسات معمقة للطعم اللثام عن تاريخها العريق، فغالبا ما يتم تناولها ضمن السياق العام للأبحاث، كالتى أُنجزت من طرف الباحثين الأجانب، نذكر منهم على سبيل المثال الحفريات التي قام بها الضباط الفرنسيون المشرفون على الجمع الأثري بمقاطعة قسنطينة أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، بالإضافة إلى الأعمال التي قام به تولوت (Toulotte Mgr.) ما بين 1892 و 1894م، والتي تناول فيها جغرافية إفريقيا المسيحية (Géographie de l'Afrique chrétienne, Numidie)، وتطرق خلالها إلى الحركة الدوناتية، إلى جانب دراسات تناولت موضوع انتشار المسيحية في شمال إفريقيا بصفة عامة، وأشارت ضمنها إلى الأحداث التي وقعت في مدينة باغاي عام 347م، و ما ترتب عنها من انعكاسات خطيرة على مسيحيي المنطقة، نذكر منها أعمال الباحث مونسو بول (Paul. Monceaux)، الذي تناول فيها "التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية من الأصول إلى غزو الوندال"، نشرها في سبعة أجزاء ما بين 1901 و 1923، و يُعد عمله منطلقا لمختلف الدراسات الحديثة عن إفريقيا المسيحية، بالإضافة إلى اللاهوتي و المؤرخ لوكلارك دوم هنري (Leclercq Dom. H.) الذي اهتم بدراسة تاريخ المسيحية من نشأتها إلى العصور الحديثة، وخصص جزأين هامين من دراسته لإفريقيا المسيحية، نشرهما عام 1904م، إلى جانب الباحث بريسون (ج.-ب.) (Brisson, J.-P.) الذي خصص جزءا هاما من أطروحته التي نشرها سنة 1958م، للحديث عن نشأة الدوناتية وعلاقتها بالدواوين وموقف السلطة الرومانية منهما.

في الحقيقة هناك العديد من الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع الحركة الدوناتية، والأحداث التي وقعت في باغاي النوميديّة عام 347م، لكن لا يسعنا ذكرها كلها، فهي في مجملها تناولت الموضوع ضمن السياق العام للأحداث دون تفريد دراسة خاصة لمدينة باغاي.

لقد عرفت هذه المدينة خلال فترة الاحتلال الروماني أحداث سياسية خطيرة، أبرزها تلك التي وقعت عام 347م، والتي أسفرت عن سقوط العديد من الضحايا أغلبهم من النوميديين خاصة منهم الدوناتيين. وفي هذا البحث سأحاول دراسة حيثيات هذه الأحداث مع تتبع الظروف والأسباب التي أدت إلى وقوعها و النتائج المترتبة عنها.

1. الموقع والتسمية

باغاي (Bagai) مدينة نوميديّة، تقع على ضفاف وادي بورغال الذي ورد ذكره باسم ابيقاس (Abigas) عند المؤرخ بروكوب (PROCOPE, BELL., II, 29)، في السفح الشمالي لجبل الأوراس (Lissoir, 1777 : 52) في المكان الذي يُعرف إلى اليوم باسم قصر باغاي (Trousset, 1991: 1)، أو “قصر الكاهنة” حسب سكان المدينة حالياً، تظهر أطلال هذه المدينة في المنطقة الممتدة بين سفوح جبل الأوراس وبحيرة الطارف، على طول ثمانية كيلومتر (Toulotte, 1894 : 55)، هي حالياً بلدية من ولاية خنشلة (ماسكولا قديماً) (شكل رقم 1)، تبعد عنها بحوالي اثني عشر كيلومتراً (Decret, 1996: 112).



شكل رقم 1: خريطتان تمثلان التقسيم الإداري لولاية خنشلة يظهر ضمنها موقع بلدية باغاي التي لُوت بالون

الأحمر.

لا نملك أدلة قاطعة تُساعدنا في تحديد تاريخ تأسيس مدينة باغاي، ولا مؤسسها الحقيقي، كون آثارها قليلة لا تكاد تظهر، غمرتها الأتربة على مرّ التاريخ، باستثناء بعض الحجارة المتناثرة هنا و هناك، على غرار عمودين دائريين كبيرين وأنواع مختلفة من الحجارة المصقولة. هناك من يعتقد أن الموقع الأثري لمدينة باغاي، لا يقل أهمية عن تيمقاد، وأنه تحت أطنان الأتربة التي تملأ الموقع توجد مدينة كاملة، يجب استخراجها من الأرض عن طريق حفريات كبيرة جادة، فغياب المعطيات المادية والأدبية المتعلقة بتاريخ باغاي قبل الاحتلال الروماني، أي في عصر مملكة نوميديا، و حتى قبلها، تُجبرنا على عدم الخوض في هذه المرحلة التاريخية للمدينة. في حين تُساعدنا المعطيات المتوفرة حاليا على تسليط الضوء على بعض الأحداث التي عرفتها المدينة بعد الاحتلال الروماني لنوميديا. لقد أُدرجت باغاي ضمن سياسة الرومنة الإدارية للمدن التي انتهجتها السلطات الرومانية في المنطقة، فتروسات (Trousset) يعتقد أنها كانت في البداية حصنا محليا (كاستلوم) للأهالي، و مقرا للضباط الرومان (ديكوريون) (Décurions) عام 162م، غير أن النقيشة التي عُثر عليها بالمنطقة، و التي اقتصرَت على ذكر بعض أسماء الفيلق، لا تُساعدنا على تحديد التاريخ الدقيق لاحتلالها، و لا على إزالة الغموض عن الفترة السابقة لتحوّلها إلى مستوطنة رومانية (Trousset, 1991: 1).

لقد ورد ذكر المدينة في النقوش التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، تحت اسم باغايا أو باغاي (Bagai ou Bagaia)، كبلدية رومانية، لكنها لم تُذكر في "مسالك انطونينوس" (itinerario antonini)، ولا في لوحة بوتينكير (Table de Peutinger) (Mesnage, 1912: 253).

كما ورد اسم باغاي ضمن السجلات الكنسية التي أشارت إلى مشاركة أسقفها في الجمع الديني الذي عُقد في قرطاج عام 256م برئاسة كبريانوس، حضره أساقفة من البروقنصلية و نوميديا (CYPRIEN, CORRESPONDENCE: XXX, XXXI)، وأيضاً، في الجمع الديني المعروف بـ "الجمع البريمياني" المنعقد سنة 394م في باغاي، والذي ضم 310 أسقفا دوناتيا من أتباع "بريميانوس" (Primianus)، لإدانة "ماكسيميانوس" (Maximianus) و أتباعه حسب ما ورد عن أوغسطين (AUGUSTIN, OEUVRES : XXVIII)، الذي أشار إليها باسم "باجة" (Vagai أو Vagaia)، و عند حديثه، أيضاً، عن سوء المعاملة التي تعرض لها ماكسيميانوس أسقف كنيسة باغاي و زملائه من طرف خصومه، الأمر الذي جعل الأساقفة الذين حضروا الجمع الديني الذي عُقد في 26 جوان عام 404م يتفقون على الطلب من الإمبراطور الروماني إصدار قوانين للحد من تصرفات الدواوين المعادية للأساقفة (AUGUSTIN, OEUVRES : XXVIII).

2. أحداث باغاي 347م

بزوال الاضطهاد بدأت الكنيسة الإفريقية تشهد صراعاً داخلياً أدى إلى انقسام كبير بين مُريديها بل قض على فكرة الكنيسة الجامعة لكلاً للمسيحيين خلال القرن الرابع الميلادي و بعده.

كان تنصّر السّلتة ومساندتها لكنيسة قرطاج عاملاً أساسياً في تفاقم الخلافات بين المسيحيين الأفارقة و انقسامهم إلى تيارين دينيين اتخذاً أبعاداً سياسية، تيار مُوالٍ للسلطة وعلى رأسه الكنيسة الرسمية في قرطاج، وتيار مُعارض لهيمنة السّلتة على الكنيسة وعلى رأسه الكنيسة الدّوناتيّة¹. فالمكانة التي حظيت بها الكنيسة في عهد قسطنطين جعلت المنافقين يسارعون لاعتناق المسيحية حفاظاً على مناصبهم و امتيازاتهم، ممّا ضيّع الإيمان الحقيقي للمسيحيين الجدد وبدا الصراع العقائدي نتيجة التناقضات الاجتماعية و الفكرية و الثقافية، و قضى على مفهوم الكنيسة الواحدة.

1.2. أسباب أحداث باغاي 347م

لعب زعيم الكنيسة الدّوناتيّة الأسقف دوناتوس دوراً فعّالاً في كسب قاعدة شعبية واسعة، وذلك بفضل حنكته وطريقة تسيير شؤون كنيسته، ومع مرور الزمن والحن تبلورت أفكار الدوناتيّة، واحتوت المطالب الاقتصادية والاجتماعية للطبقة المحرومة والمعوّزين والمظلومين، الأمر الذي ساعد على انتشارها في نوميديا وموريطانيا، ظهر ذلك في عدد الأساقفة المشاركين في المحامع الدينية التي عُقدت في قرطاج بين سنتي 336م و 340م، حيث بلغ عددهم حوالي 270 أسقفًا (Decret, 1996: p.141).

لقد اتبع الإمبراطور الروماني قنسطانس في بداية حكمه سياسة حذرة تجاه الكنيسة الدّوناتيّة، غير أنّ محاولته في تطبيق مشروعه الوحدوي، المتمثل في القضاء على الانشقاق في الكنيسة الإفريقية عام 347م، جعل الأوضاع تتأزم في المنطقة، بل تطوّرت بشكل خطير، وتحوّلت إلى مواجهات عنيفة بين المسيحيين، فبدل أن يُرَدَّ الإمبراطور قنسطانس على طلب الأسقف دوناتوس²، المتمثل في الاعتراف به أسقفًا شرعيًا على كنيسة قرطاج بعد وفاة الأسقف كايكيليانوس عام

¹ الكنيسة الدّوناتيّة سُميت نسبة إلى أبرز زعماء الكنيسة المنشقة عن كنيسة قرطاج و الذي يُدعى "دوناتوس". وفي مناظرة قرطاج أكَد الدّوناتيون أنّ هناك شخصين يدعيان دوناتوس: دوناتوس أسقف الدّيار السّوداء (Casae Nigrae) بنوميديا، وهو الذي صدر في حقّه أول حكم ضدّ الدّوناتيّة سنة 313م، ودوناتوس الأكبر، الزّعيم الدّوناتي المشهور الذي قاد كنيسته بعدئذ و إلى غاية حوالي 347م. (Monceaux, 1912 :20-37)

² يرى أوبطاميلي أنّ دور دوناتوس في الانشقاق كان قاطعاً، وأنّه فعلاً كان سيّدا بلا منازع لكنيسة، يعتبر مُخلّصوها أنفسهم المسيحيين الموحدين، فالكلّ كان يتحدّث عن عبقريته في التّنظيم فهو المعلّم الرّوحي.

346م، فهو يرى نفسه، أحقّ بتوليّه المنصب دون غيره، ويُنهى بذلك الانشقاق، أرسل مبعوثين بولوس (Paulus) ومكارئوس (Macarius) في مهمّة رسمية إلى إفريقيا من غير الإفصاح عن سبب هذه الزيارة، و دون الرّد على طلب دوناتوس. ولم يعترض سبيلهما أحدٌ عند وصولهما إلى قرطاج، حيث قاما بتوزيع هبات الإمبراطور على الفقراء³، واكتفيا بحثًا الاكليروس في كنيسة قرطاج على التّصالح مع خصومهم الدّينيين⁴. غير أن إعلان مساندتهما لكنيسة الكاثوليك بعد وصولهما إلى قرطاج، وقيامهما بتنفيذ مرسوم الوحدة بقسوة كبيرة، يُثبت عداتهما لكنيسة الدوناتيين (Le Bohec, 2005: 199)، وإلا كيف تُفسر استعانة المبعوثين الرومانيين بالجيش عند دخولهما إلى مدينة باغاي بنوميديا، واستنجد الدّوناتيين بالثّوار الرّيفيين المناضلين للدّفاع عنهم (محمّد المبكر، 2001: 120)، إن دَل ذلك فإنّما يدلّ على شيء واحد، ألا وهو رغبة الإمبراطور في تطبيق قرار الوحدة بالقوة.

لقد تباينت الآراء حول أسباب هذه الأحداث، إذ حمّل الكاثوليك المسؤولية فيما حدث لتعنّت الدّوناتيين، وحاولوا تبرير استعمال السّلطة العنف ضدّهم، مدكّرّين إياهم أنّهم سبقوهم في اللّجوء إلى الإمبراطور قسطنطين مرّتين متعاقبتين سنة 314م طالبين نصرته، في حين اعتبر الدّوناتيون، أكثر من أيّ وقت مضى، كنيستهم "كنيسة الشّهداء" (محمّد المبكر، 1985: 207).

2.2. نتائج أحداث باغاي

لم يتورّع مكارئوس في إهانة الأساقفة الدّوناتيين، بل أمر بجلدهم وسجنهم و حتى قتلهم، حسب ما ورد في كتابي آلام مركولوس و آلام ماكسيميانوس⁵، وسقط على إثر أحداث باغاي العديد من الضحايا أغلبهم من الدوناتيين، منهم "دوناتوس"، أسقف مدينة باغاي، و "ماركولوس" (Marculus)⁶،

³. إعتقد الإمبراطور قنسطانس أنّ أسباب الانشقاق المسيحي والاضطرابات التي عرفتها الولاية الإفريقية ترجع إلى الفقر والحرمان، لذلك فكّر في توزيع الصّدقات على الفقراء، وشراء ذمم القادة لتحقيق الوحدة. لكنّ بتدخل دوناتوس ومنع الصّدقات على أتباعه أفشل مشروعه. (شارل أندري جوليان، 1985: 299).

⁴. كان قنسطانس يرمي من خلال المهمّة الموكّلة إلى المبعوثين حتّى الكنيستين المتنافستين الرّجوع إلى الوحدة و لو باستعمال القوة ضدّ الدّوناتيين. (محمّد المبكر، 2001: 205 و 267).

⁵. تتملّ في كتابي: "آلام ماركوس" (Passio Marculi) و "آلام ماكسيميانوس وإسحاق" (Passio Maximiani et Isaac) اللّذين يرويان قصّة الشّهداء الدّوناتيين اللّذين سقطوا عام 347 م.

(Monceaux, 1912 : 35-98)

⁶. عُثر خلال التنقيب الأثري بمنطقة قصر الكلب على نصب تذكاري للشّهيد ماركولوس (memoria Marculi) داخل كنيسة. (Brisson, 312).

(1958 :

و"ماكسيميانوس" (Maximianus)، و"إسحاق" (Isaac)⁷، ونُفِي عدد من الأساقفة الدوناتيين على رأسهم دوناتوس الكبير، في حين فرّ آخرون مضطّرين، وضُورت كنائسهم وممتلكاتهم، وفُرضت عقوبات صارمة لكلّ من يتعامل مع الدوناتيين وحلفائهم⁸.

ليس من الصدفة أن تقع أحداث العنف عند مشارف مدينة باغاي بنوميديا، فهذه المنطقة كانت مهدا للدوناتية وقلعتها، منذ بداية الانشقاق الدوناتى إلى نهاية الصراع⁹. كما أنّ الأرياف ظلّت الحصن الحصين للكنيسة المضطهدة، فلا غور أن تكون مقاومة هذا الإقليم لمهمة المبعوثين الإمبراطوريين قويّة وعنيفة، خاصّة لما اتّضح تحيُّزهم إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية، إذ بمجرد وصولهم إلى قرطاج، ذهبوا إلى كنيسة الأسقف كراتوس (Gratus) -خليفة الأسقف كايكيليانوس- للقيام بشعائهم الدينية، وتجاهلوا وجود الأسقف دوناتوس (Decret, 1996:143)، فكان من الطّبعي أن يفهم هذا الأخير أنّ الإمبراطور لم يرُدّ على طلبه كونه اختار الأسقف كراتوس بدلاً عنه على رأس كنيسة قرطاج، ومن ثمّ حتّى الأساقفة الدوناتيين على رفض الهيئات الإمبراطورية و الصدقات التي توزع على الناس لامتناس غضبهم، ورفض تدخّل الإمبراطور قنسطانس في شؤون الكنيسة قائلاً: "ما شأن الإمبراطور والكنيسة؟" عند ردّه على المبعوثين (OPTAT DE MILEVE, De SCHISMATE: III, 3).

لم يتقبل الدوناتيون تدخّل الإمبراطور قنسطانس في شؤون الكنيسة الإفريقية بهذه الطّريقة، فأحداث باغاي الدّامية التي وقعت سنة 347م تركت جروحاً عميقة في نفوس الدوناتيين، حيث برز دور "مكاربوس"، بصفة خاصّة، خلال عمليات القمع، لدرجة أنّ الدوناتيين كانوا يُطلقون على الكنيسة الكاثوليكية لقب "حزب مكاربوس" (Pars Macarii)، وعلى فترة وقعت الاضطهادات "أيّام مكاربوس" (Tempora Macariana) (Monceaux, 1912:37-38)، وكان الأسقف بتيليانوس (Petilianus) الدوناتى يُردّد ذكرى أضرارها في وجه خصومه الكاثوليك

⁷ أُلقي ماكسيميانوس في البحر، ومات إسحاق في السّجن قبل رميه في البحر. ورد ذكرهما في كتاب: "آلام ماكسيميانوس وإسحاق" (Passio Maximiani et Isaac).

(Monceaux, 1912 : 35-38)

⁸ كان تحالف السّطة مع الكنيسة الكاثوليكية السّبب في إحداه التّقارب بين الثّوار الرّيفيين والدّوناتيين الّذين مُورست في حقّهم حربٌ عسكريّة وكلامية من طرف الكاثوليك. فتخلّى الدّوناتيين عن مبدأ المقاومة السّلمية واللّجوء إلى الثّوار المسلّحين كان للدّفاع عن وجودهم وكيانهم ضدّ خصومهم المختّمين بالجيش، بالتّالي تطوّر الصّراع الكلامي إلى الصّراع الميداني بالسّلاح. (بتصرّف: محمّد البشير شنيّ، 1984: 298-299)

⁹ لم يكن التقاد المحدثون هم الّذين أبرزوا أنّ نوميديا كانت معقل الدّوناتية، فالكتّاب المعاصرون للحركة كانوا - أنفسهم - يُشيرون إلى ذلك بدون غموض، سواء منهم الدّوناتيون أو الكاثوليك. مثلاً كاتب «رسالة إلى الكاثوليك» (حوالي 401-402 م) يقول: «... في نوميديا حيث تسودون بتفوّق كبير ...». وفي مناظرة قرطاج سنة 411م، أشار بتيلبانوس، أسقف قسنطينة الدّوناتى، إلى تفوّق حزبه هناك قائلاً: «إنّهم (أي الكاثوليك) لا يتوفّرون على أيّ أسقف في نوميديا، أو أنّهم يتوفّرون على بعض الأساقفة، لكن في جهات قليلة». (محمّد المبكر، 1985: 195).

قائلاً: "إنّ الكتاب المقدّس يقول لا تقتل أخاك وأنتم قتلتمونا ولا تأخذ متاع غيرك وأنتم نهبتم أملاكنا واعتبرتموها ملكاً لكم(.....)"(AUGUSTI, CONTRA: II, LXXXVIII).

لقد أدّى القرار الذي أصدره الإمبراطور قنسطانس عام 347م إلى إضعاف الدّوناتية، و تزايد عدد الكنائس الكاثوليكية وأساقفتها تحت رعاية السّلطة بعد أن عرفت تراجعاً لمُدّة ثلاثين سنة بسبب انتشار الكنائس الدّوناتية (Brisson, 1958:261)، ففي المجمع الكنسي الكاثوليكي الذي انعقد في قرطاج عام 348م برئاسة الأسقف كراتوس (Gratus)، افتتح هذا الأخير الاجتماع بالشّكر لله على تدخّل الإمبراطور قنسطانس وإرساله مبعوثيه إلى إفريقيا، ذلك ما يُبيّن مدى فرحة وترحيب الكاثوليكين بوقوف السّلطة إلى جانبهم، وردعها لأعدائهم، بل خرج المشاركون في هذا الاجتماع بإقرار عدة قوانين تنظيمية وعقوبات في حق الدوناتيين منها:

1-توحيد الكنيستين المتخاصمتين في كنيسة واحدة.

2-حل كل الوحدات الكنسية المنشقة.

3-إعادة كل الأموال و المعابد إلى الكنيسة الكاثوليكية.

4-منع إعادة التعميد.

5- نفي المحرضين المنشقين خاصة الأساقفة.

رغم تلقي الكنيسة الدّوناتية ضربة قاسية، إلا أنّ الأساقفة المنفيين استمروا في ممارسة نشاطاتهم وتسيير شؤون كنائسهم في نوميديا و موريطانيا، رغم بعدهم عنها، فبعد وفاة الأسقف دوناتوس الكبير في المنفى عام 355م، تمّ انتخاب بارمنيانوس (Parmentianus)¹⁰ (355-393م) أسقفا للكنيسة الدوناتية في قرطاج. كان هذا الأخير داهية داعية نشيطا و مجادلا و خطيبا، فرض احترامه حتى على خصومه بفضل إنصافه واستقامته، حيث أثبت بأن الكنيسة الكاثوليكية هي السباقة لاستعمال القوة ضد الدوناتيين(Prévôt et autres, 2006:327-328)

¹⁰بارمنيانوس هو من أشهر زعماء الدوناتية، وُلد في اسبانيا أو غاليا، تعرف على دوناتوس في المنفى و تأثر بمذهبه، فانظم إلى كنيسته، وبعد وفاة دوناتوس عام 355م تم اختياره كرئيس على كنيسته و عل كل الكنائس الدوناتية في إفريقيا.

(Monceaux, 1912: 40-41).

كما تمكن بارمانيانوس من بعث الحركة الدوناتية واستعادة نشاطها من جديد، مستغلا سياسة التسامح الذي انتهجه الإمبراطور جوليانوس¹¹ (361م-363م) اتجاه المعتقدات المنتشرة في الإمبراطورية الرومانية، حيث أصدر قانونا عاما، بموجبه منح الحق لكل أصحاب البدع ممارسة شعائهم الدينية، و قبل طلب الأساقفة الدوناتيون¹² تطبيق هذا التسامح على كنيستهم، وإلغاء مرسوم قنسطانس، عندئذ رجعوا من مفاهمهم، وسمح لهم باسترجاع الكنائس التي استولى عليها الكاثوليكيون، والعودة إلى ممارسة نشاطاتهم.

و هكذا استفادت الكنيسة الدوناتية من سياسة الإمبراطور جوليانوس وعرفت أوج تطورها و انتشارها خلال السنوات التي أعقبت حكمه، رغم سعي خلفائه من بعده إلى توفير حماية أكبر لكنيسة الكاثوليكين، و ضربها من جديد لإضعافها.

لقد كانت الاحتجاجات في الأرياف النوميديّة ضد الأثرياء والسلطة الحاكمة فرصة التقاء بين الانشقاق الديني الذي يُمثله الدوناتيون، والتمرد الاجتماعي الذي يتزعمه الدوارون، خاصة بعد أحداث باغاي عام 347م (شارل أندري جوليان، 1985: 298-301)، وكان دوناتوس، أسقف باغاي، يُطلق على الدوارين اسم "المصارعين القدسيين" (agonistici) لدفاعهم عن الدوناتيين، حين تعرضوا لاعتداءات الفرقة العسكرية المرافقة للبعثة الإمبراطورية في باغاي (Piganiol, 1947:81)، لذلك أدرج الدوناتيون ضحايا هذه المواجهة الدامية ضمن لائحة الشهداء الذين سقطوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم (Monceaux, 1912 : 40).

و كان تحالف الدوناتيين مع الدوارين عقب أحداث باغاي 347م، منعرجا هاما في تاريخ الدوناتية والدوارين، حيث التقى أتباع الكنيسة المضطهدة مع الثائرين المضطهدين سياسيا واجتماعيا، لمواجهة عدو مشترك يتمثل في السلطة الحاكمة المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية. واكتسب نشاط أولئك الثوار طابع القداسة، وأصبحوا يُسمون أنفسهم "جنود المسيح"، ويرددون شعار "لله الحمد" (Deo laudes) في المعارك (Decret, 1996: 145)، بل صاروا يدفعون بأنفسهم إلى ساحة القتال بحماس كبير لنيل الشهادة، مما أضفى على حركتهم مسحة دينية، وأضفى على رجالهم صفة

¹¹ جوليانوس أو يوليانيوس المرتد، تلقى تربية مسيحية في صغره، لكن تأثره بالأدب والفلسفة اليونانية جعله يرتد عن دينه ويعلن ذلك علنا عند اصدار القرار باعادة خزائن المعابد الوثنية التي استولت عليها الكنيسة و سخرتها لخدمتها. و قرار وقف دعم الدولة للمسيحية ، و حرم المسيحيين التعرض للاداب و الفلسفات اليونانية في مدارسهم، و حاول غرس الصراع بين الطوائف المسيحية و ذلك بدعوة الابهاء و الاساقفة المطرودين من الكنيسة إلى العودة لممارسة دورهم الديني.

(أحمد علي الناصري، 1991: 457).

¹² كان من بين الأساقفة الدوناتيين الذين تقدموا بطلب إلغاء مرسوم قنسطانس: بونتيوس و روقاتيانوس و كاسيانوس، فهم قدموا له عدة مطالب فقبلها

كلها (Monceaux, 1912 : 40-41, 244).

الطهر، وأدرج موتاهم في صفوف الشهداء بعد أن كان رجالهم يُعتون بالعصاة المتمردين (محمد البشير شنيقي، 1984: 314)، كما منح انضمام الدوارين إلى الدوناتيين نفساً جديداً للكنيسة المنشقة، حيث كسبت قاعدة شعبية واسعة، خاصة في أوساط الطبقة الناقمة على الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية المزرية، و الساخطة على السلطة الحاكمة و حلفائها من أصحاب الثروة و الجاه و الكاثوليك.

كانت الدوناتية في البداية حركة سلمية متشعبة بمبادئ المسيحية الأولى، التي كانت تدعو إلى العدالة والمساواة في المجتمع، ومقاومة العنف السياسي بالإيمان والصبر والثبات، إلا أن الظروف التي استجدت في المنطقة، وما جرى في مدينة باغاي نو ميديا عام 347م واضطهاد السلطة لها (Brisson, 1958: 354-355)، جعلها تعتمد مبادئ جديدة لتطوّرها إلى مطالب سياسية واجتماعية، خاصة بعد توثق علاقتها مع حركة الدوارين، لذا بادرت بتأييد الثورات الريفية، وفتحت أبواب كنائسها للتأثرين فيرموس وجيلدون وأتباعهم.

3. وصف مدينة باغاي في المصادر

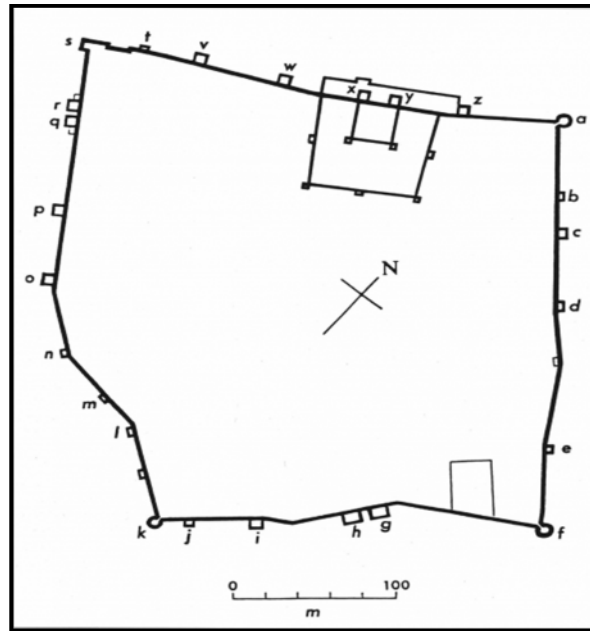
ليس لدينا معلومات تُخبرنا عن وضع مدينة باغاي خلال فترة الاحتلال الوندالي، لكنها تعرضت للاحتلال البيزنطي خلال حكم الإمبراطور جوستينيان (Justinien)، عقب الحملات العسكرية التي أرسلها إلى إفريقيا بقيادة سولومون (Solomon)، ما بين 539 و 540م، و ذلك ضمن سياسته الرامية إلى استعادة المستوطنات الرومانية. (Marcillet- Jaubert, 1969 :153)

لقد أصبحت مدينة باغاي، خلال مرحلة الاحتلال البيزنطي، واحدة من أكبر المدن في المنطقة، و الأكثر تحصّناً وقدرة على الدفاع مقارنة بالمدن الأخرى، و ذلك بفضل الحصن الذي شُيّد تحت مسؤولية سولومون، حيث تمّ العثور على نقش بالمنطقة، يُخلّد ذكرى بناء حصن المدينة، يرجع تأريخه إلى فترة حكم الإمبراطور جوستينيان (Trousset, 1991 :2) (شكل رقم 2)، وظل هذا الحصن قائماً حتى نهاية الاحتلال البيزنطي، بل صار ملجأً للأهالي أثناء الفتوحات الإسلامية (شكل رقم 3).



شكل رقم 2: يُمثل نقيشة سولومون بباغاي

(Marcillet-Jaubert, Quelques inscriptions latines : 152)



شكل رقم 3: يُمثل القلعة البيزنطية بباغاي

(Diehl Ch., Encyclopédie berbère, 1991, 9)

لم ترد أي أخبار عن مدينة باغاي في الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي لإفريقيا، لذلك يعتقد بعض المؤرخين أن هذه الأخيرة، ربما انفصلت عن سلطة البيزنطيين لضعف نفوذهم في المنطقة، حيث استطاعت بفضل حصونها حماية نفسها ضد الغزاة، بل أصبحت ملجأ لسكان المناطق المجاورة لها خلال الفتوحات الإسلامية.

نظرا لأهمية مدينة باغاي بحكم موقعها الجغرافي الذي يقع بين مفترق الطرق، و الذي جعلها محل أنظار المؤرخين و الجغرافيين العرب، حيث أشاروا إليها في كتبهم في عدة مناسبات، جاء وصفها مثلاً عند بن محمد البكري في القرن الحادي عشر الميلادي كما يلي: "هي مدينة كبيرة في أقصى إفريقيا بين مجانة وقسنطينة الهواة. في جبال الاوراس قلاع كثيرة يسكن فيها قبائل هواره و مكناسة، كان جبل الاوراس مستقر الكاهنة هي حصن صخر قديم، يتصل بها بساتين و نهر، و في أرباضها و فنادقها و حماماتها و أسواقها، وجامعها داخل الحصن، و هي في بساط عريض كثير المياه، و جبل اوراس مطل عليه". (محمد البكري، المسالك: 328).

كما وصفها كل من أبي الثناء الصفاقسي و محمود بن سعيد مقديش بقولهما: "من أهم المدن و القلاع والحصون ذكر مدينة باغاية، مدينة كبيرة عليها سوران من حجر، و رضى عليه سور، كانت به الأسواق، و هي أول بلاد التمر، و لها واد يجري إليها من جهة الجنوب، منه شربهم و آبار عذبة، كانت لها بوادي و قرى، عمارها برابرة يعاملون العرب، و أكثر غلاتهم الحنطة و الشعير، و يتصل بها قريبا جبل الاوراس، (أبي الثناء الصفاقسي و بن سعيد مقديش، نزهة، 1971: 93).

الخاتمة:

رغم أن مدينة باغاي كانت من أكبر معاقل الدوناتيين، إلا أنه لم يُعثر بها على كنائس تعود إلى هذه المرحلة من تاريخها، سوى بقايا ضئيلة لبازيليكا، فهذا الأمر يستوجب منا البحث لمعرفة الظروف التي حالت دون بناء كنائس، كالتي شُيّدت في غيرها من المدن النوميديّة، ككنيسة تيمقاد، وتبسة، ومداوروش... وغيرها.

رغم التاريخ الحافل بالأحداث و القلاع إلا أنّ باغاي اليوم أصبحت مدينة مجهولة، غمرتها الأتربة على مرّ التاريخ، ولم يبق منها إلا بضعة آثار حصون و قصر تُطل أحجاره كأعلام من تحت الأرض لتشير إلى أن ما تحتها كان أعظم شأنًا.

بيبلوغرافيا:

باللغة العربية

المصادر (الكتب و المقالات)

1. البكري، أ. ع. (ب.س): المسالك و الممالك، ج2، لبنان، دار الكتب العلمية.
2. الصفاقسي، أ و مقديش، م. (1971): نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار و مناقب السادة الأطهار، ج1، دار الكتب العلمية.

3. . المبكر، م.(2001): شمال إفريقيا القديم، حركة الدوارين و علاقتها بالدوناتية(305-429م)، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
4. الناصري، س.ع. (1991): تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي و الحضاري، الطبعة الثانية منقحة و مزودة، القاهرة، الناشر دار النهضة العربية.4

باللغة الأجنبية

Les ouvrages (Livres et articles)

1. Augustin St. (1872): *Œuvres complètes de Saint Augustin*, évêque d'Hippone, Volume 28, traduites en français et annotées par Péronne et Vincent, Ecalte Charpentier, H. Barreau., Paris, librairie de Louis Vive.
2. Augustin, St. (1967) : *Contra litteras Petiliani Libri Très*, II, LXXXVIII, 195, B.A.30.
3. Cyprien Th. (1925). *Correspondance*, Tome 1et Tome 2, texte établi et traduit par Le Chanoine Bayard, Paris, Société d'édition « Les belles lettres ».
4. Procope, (1852) : *Histoire de la guerre des vandales*, livre II, œuvre numérisée par Marc Szwajcer, Paris.
5. Brisson, J.P. (1958). *Autonomisme et christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale*, Paris, De Boccard.
6. Decret F. (1996). *Le christianisme en Afrique du nord*, Paris, édition du Seuil.
7. Diehl Ch. (1894). Missions archéologiques dans l'Afrique du nord [Note bibliographique] H. Graillot, *Mélanges de l'école française de Rome* .
8. Ibba, A. et Traina, G. (2006). *l'Afrique romaine (69-439 ap. J.-C.)*, Bréal.
9. Le Blohec, Y. (2005). *Histoire de l'Afrique romaine 146 Avant J.-C. 439- après J.-C.*, Paris, éditions, A. et J. Picard.
10. Lissor Th. (1777). *Table géographique du martyrologue romain*, Paris, librairie quai des augustins.
11. Marcillet-Jaubert J. (1969). Quelques inscriptions latines d'Algérie. In: *Antiquités africaines*, 3.
12. Mesnage P.J. (1912). *l'Afrique chrétienne, ruines et évêchés*, Paris E. Leroux.
13. Monceaux P. (1912). H.L.A.C. *Le donatisme*, Paris.
14. Toulotte M. (1894). *Géographie de l'Afrique chrétienne, Numidie*.